(١)

المسئولية

الحمد لله رب العالمينَ ، القائلِ في كتابه الكريم : {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا} ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيدَنا ونبيَّنا مُحَمّدًا عَبدُه وَرَسُولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه ، وَعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، أجمعين .

وبعـــد :

فلقد كرم الله (عزَّ وجلَّ) الإنسان فخلقه بيديه ، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له ملائكته ، وفضَّله على كثير من خلقه بأمور كثيرة ، منها : تحمله للمسئولية والتكاليف الشرعية ، فلا يخلو عاقل رشيد من أمر المسئولية مهما كانت منزلته في المجتمع ، فكل إنسان مسئول بقدر استطاعته ونطاق تحمله والمهام الموكلة إليه .

ومما لا شك فيه أن المسئولية تكليف قبل أن تكون تشريفًا ، ومن نظر إليها نظرة تشريف فقط متشوقًا إليها متطلعًا لها بإشراف نفس ، غالبًا ما تجرفه مزالقها وتبعاتها ، ومن أخذها بحقها مأخذ التكليف أو مأخذ الرسالة ، فله فيها من الله (عز وجل) معين، وفي هذا يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) لعبد الرحمن بن سمرة : (يا عبدَ الرَّحمن، لاَ تَسْأَلِ الإِمَارَةَ ؛ فَإِنَّكَ إِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا ، وَإِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْهَا) ، وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ (رضيَ اللهُ عنهُ) قَالَ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ ، أَلَا تَسْتَعْمِلُنِي؟ قَالَ: فَضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى مَنْكِبِي ، ثُمَّ قَالَ : (يَا أَبَا ذَرٍّ إِنَّكَ ضَعِيفٌ ، وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ ، وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ ، إِلاَّ مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا ، وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا).

وللمسئولية صور كثيرة ، منها : **المسئولية الأسرية** : فإنّ للأسرة دورًا عظيمًا في استقرار المجتمع وتماسكه ، فهي الركيزة الأساسية في بنائه وخط الدفاع الأول عنه، والوالدان مسئولان أمام الله (عز وجل) عن بناء هذه الأسرة واستقرارها من خلال

قيام كل منهما بواجباته وأداء ما عليه من حقوق .

ولقد وضح الإسلام هذه الواجبات وتلك الحقوق ، وقسمها بين جميع أفراد الأسرة ، حيث يقول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، الإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، والرَّجُلُ رَاعٍ في أَهْلِهِ وَمَسْئولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ في بيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا ، وَالخَادِمُ رَاعٍ في مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ)، فنجاح الأسرة واستقرارها مرهون بالمحافظة على الحقوق والواجبات بين جميع أفرادها ، وعدم تجاهلها أو التفريط فيها.

فالمسئولية بين أفراد الأسرة تكاملية تبادلية : حقوق وواجبات ، واحترام متبادل ، على أن يؤدي كل فرد فيها دوره بحب وود وأمانة ، أما من قصر أو فرط أو ضيع فهو مسئول أمام الله (عز وجل) ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (إِنَّ اللَّهَ سَائِلٌ كُلَّ رَاعٍ عَمَّا اسْتَرْعَاهُ ، أَحَفَظَ أَمْ ضَيَّعَ ، حَتَّى يَسْأَلَ الرَّجُلَ عَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ) ، ويقول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَعُولُ) .

ومن صور المسئولية : **المسئولية الوظيفية** ، فإن أمر المسئولية يتعاظم بتعاظم المهمة التي تُوكل إلى كل مسئول ، فكلما اتسع نطاق المسئولية تطلَّب مواصفات خاصة أهمها : الكفاءة ، والكفاية ، والخبرة ، والأمانة ، والقدرة على القيام بمهام تلك المسئولية وتبعاتها ؛ حيث يكون كل إنسان مسئولًا أمام نفسه ، وأمام الناس ، وأمام الله (عز وجل) عما ولَّاه إياه ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (مَا مِنْ رَجُلٍ يَلِي أَمْرَ عَشَرَةٍ فَمَا فَوْقَ ذَلِكَ إِلَّا أَتَى اللهَ مَغْلُولًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَدُهُ إِلَى عُنُقِهِ، فَكَّهُ بِرُّهُ ، أَوْ أَوْبَقَهُ إِثْمُهُ) .

كما ينبغي لكل من يتولى أمرًا من أمور الناس ، أو وظيفة من الوظائف أن يدرك أنه مأمور بحسن الأداء ، ومراقبة الله (عز وجل) ، وعليه أن يعي أنه يتعامل مع مال عام ، فيتصرف فيه في حدود أداء وظيفته ، فلا يدخل على نفسه سحتًا أو حرامًا ، تحت أي مسمى من المسميات .

على أننا نؤكد أن أي مسئول وعلى أي مستوى لا يصح ولا ينبغي أن يكون اتكاليًّا ، أو غير متابع ولا مدقق لتفاصيل جميع المهام الواقعة في نطاق مسئوليته ، مهما بدا له ذلك الأمر صغيرًا أو بسيطًا ، فقد يترتب على الإهمال فيما يظنه البعض صغيرًا أو بسيطًا ما لا يحتمل من الضرر ، وعلينا أن ندرك جميعًا أن الثقة لا تعني عدم المتابعة ، وأن المتابعة لا تعني عدم الثقة .

كما أن كل مسئول في نطاق مسئوليته مطالب بأن يختار من المعاونين القويَّ الأمين ، وأن يختار الأكفأ فالأكفأ ، فمن ولَّى رجلا على جماعة وفيهم من هو أصلح للمهمة منه بكل ما تعنيه كلمة أصلح من معان ؛ فقد خان الله ورسوله والوطن والأمانة التي يتحملها .

ومن صور المسئولية كذلك **المسئولية المجتمعية** ، فقد وضع الإسلام ضوابط مجتمعية يحيا الناس من خلالها حياة آمنة مستقرة ، يسودها المودة والإجلال والاحترام ، والتكافل والتضامن الاجتماعي ، علي أساس المساواة بين بني البشر جميعًا ، فيكون المجتمع جسدًا واحدًا.

والمتأمل في واقع الناس اليوم يجد منهم الفقير الذي لا يجد ما يسد جوعه، والمريض الذي لا يجد دواءه ، والأرامل ، واليتامى والضعفاء ، ومن لا عائل لهم ، وقضاء مصالح هؤلاء وحوائجهم من المسئولية المجتمعية والشرعية والوطنية بل هي من فروض الكفايات التي إذا قام بها البعض سقطت عن الباقين ، وإن لم يقم بها

أحد أثم الجميع ، وفي ذلك يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (مَا آمَنَ بِي مَنْ بَاتَ شَبْعَانَ وَجَارُهُ جَائِعٌ إِلَى جَنْبِهِ وَهُوَ يَعْلَمُ).

ولقد أعلى النبي (صلى الله عليه وسلم) من شأن القيام بهذه المسئولية المجتمعية فجعل قضاء حوائج الناس مقدمًا على الاعتكاف في مسجده (صلى الله عليه وسلم) ، فعن أَبي سعيدٍ الخُدريِّ (رضي الله عنه) قَالَ : بينَمَا نَحْنُ فِي سَفَرٍ مَعَ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) إِذ جَاءَ رَجُلٌ عَلَى رَاحِلَةٍ لَهُ ، فَجَعَلَ يَصْرِفُ بَصَرَهُ يَمِينًا وَشِمَالًا ، فَقَال رسولُ اللَّه (صلى الله عليه وسلم) : مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلُ ظَهرٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلى مَنْ لا ظَهْرَ لَهُ، وَمَن كانَ لَهُ فَضْلٌ مِن زَادٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَن لا زَادَ لَهُ) ، وقال (صلى الله عليه وسلم) : (أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ ، وَأَحَبُّ الأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى سُرُورٌ تُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ ، أَوْ تَكَشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً ، أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دَيْنًا ، أَوْ تَطْرُدُ عَنْهُ جُوعًا ، وَلأَنْ أَمْشِيَ مَعَ أَخٍ فِي حَاجَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ – يَعْنِي مَسْجِدَ الْمَدِينَةِ – شَهْرًا... وَمَنْ مَشَى مَعَ أَخِيهِ فِي حَاجَةٍ حَتَّى يَتَهَيَّأَ لَهُ أَثْبَتَ اللَّهُ قَدَمَهُ يَوْمَ تَزُولُ الأَقْدَامِ).

وكان (صلى الله عليه وسلم) يحرص على متابعة أصحابه في قضاء حوائج الناس والسعي في مصالحهم ، فيسأل عمن فعل واستجاب وعمن حرص واقتدى ، فقَالَ (صلى الله عليه وسلم) ذَاتَ يَوْمٍ : (مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ صَائِمًا؟) قَالَ أَبُو بَكْرٍ (رضى الله عنه): أَنَا ، قَالَ : (فَمَنْ تَبِعَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ جَنَازَةً ؟) قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا ، قَالَ: (فَمَنْ أَطْعَمَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ مِسْكِينًا؟) ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا ، قَالَ: (فَمَنْ عَادَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ مَرِيضًا؟). قَالَ أَبُو بَكْرٍ : أَنَا ، فَقَالَ (صلى الله عليه وسلم) : (مَا اجْتَمَعْنَ في امْرِئٍ إِلاَّ دَخَلَ الْجَنَّةَ).

ومن صور المسئولية كذلك : **المسئولية الوطنية** : فإن للوطن حقوقًا علينا جميعًا، وعلينا مسئولية كبرى تجاهه ، من أجل حمايته ، والعمل على رفعته وتقدمه ، ولقد ربَّى النبيُّ (صلى الله عليه وسلم) أصحابه على أن التضحية بالنفس والمال دفاعًا عن الأوطان وحرماتها ومقدساتها جهاد في سبيل الله ؛ ولا أدل على ذلك من أن الله (عز وجل) قد أعلى من شأن من بذلوا أرواحهم دفاعًا عن دينهم وأوطانهم ، فقال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ}.

كذلك من المسئولية الوطنية : العمل على إعمار البلاد ، ورفعتها ، وتقدمها ، بإعلاء المصلحة العامة على المصلحة الخاصة ، وتوحيد الجهود، ونبذ الخلافات ، وعدم شق الصف وأن نكون على قلب رجل واحد ، امتثالًا لقول الله تعالى : {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا}، وقوله جلَّ شأنُه : {وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} .

وعلينا أن ندرك أنه سيأتي اليوم الذي يقال للجميع فيه : {وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ} ، ولنستشعر قول الله (عز وجل) : {يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ} ، صغر أمرها أو كبر ؛ حيث يقول الحق سبحانه : {إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ}.

أقولُ قولِي هذا ، وأستغفرُ اللهَ لِي ولكُمْ .

* * *

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، وأشهدُ أن لا إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لاَ شريكَ لَهُ ، وأشهدُ أنَّ سيدَنَا وَنَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عبدُه ورسُولُه ، اللهُمَّ صَلّ وسلمْ وَبارك عليهِ ، وَعلى آلهِ وصحبهِ أجمعينَ ، وَمن تَبعَهُمْ بإحسانٍ إِلىَ يومِ الدِّين .

إخوة الإسلام :

ساعات قليلة ونستقبل موسمًا من مواسم الخير والبركة والطاعة ألا وهو شهر شعبان المبارك ، شهر ترفع فيه الأعمال لتعرض على الله (عز وجل) ، لذا كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يخصه بمزيد من العبادة والطاعة ، والتقرب إلى الله سبحانه ، فكان (صلى الله عليه وسلم) يكثر فيه من الصيام لدرجة لفتت أنظار أصحابه (رضوان الله تعالى عليهم) حتى أن بعضهم سأله عن سرِّ ذلك الاهتمام ، فعن أُسَامَةَ بْن زَيْدٍ (رضي الله عنهما) قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ، لَمْ أَرَكَ تَصُومُ شَهْرًا مِنَ الشُّهُورِ مَا تَصُومُ مِنْ شَعْبَانَ ، قَالَ: (ذَاكَ شَهْرٌ يَغْفُلُ النَّاسُ عَنْهُ بَيْنَ رَجَبٍ وَرَمَضَانَ ، وَهُوَ شَهْرٌ تُرْفَعُ فِيهِ الْأَعْمَالُ إِلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ، فَأُحِبُّ أَنْ يُرْفَعَ عَمَلِي وَأَنَا صَائِمٌ) .

وعَنْ أم المؤمنين السيدة عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ (رَضِيَ اللهُ عَنْهَا) أَنَّهَا قَالَتْ : (كَانَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَصُومُ حَتَّى نَقُولَ: لَا يُفْطِرُ ، وَيُفْطِرُ حَتَّى نَقُولَ: لَا يَصُومُ ، وَمَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) اسْتَكْمَلَ صِيَامَ شَهْرٍ قَطُّ إِلَّا رَمَضَانَ ، وَمَا رَأَيْتُهُ فِي شَهْرٍ أَكْثَرَ مِنْهُ صِيَامًا فِي شَعْبَانَ) .

كما اختص الله (عز وجل) شهر شعبان بليلة مباركة ، يطلع الله فيها على عباده ، وينظر إليهم نظر رأفة ورحمة ، ويتفضل عليهم بغفران الذنوب وستر العيوب ، ألا وهي ليلة النصف من شعبان ، فعن أبي موسى الأشعري (رضي الله عنه) أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، قال: (إِنَّ اللَّهَ لَيَطَّلِعُ فِي لَيْلَةِ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ فَيَغْفِرُ لِجَمِيعِ خَلْقِهِ إِلَّا لِمُشْرِكٍ أَوْ مُشَاحِنٍ) ، وفي رواية: (يطَّلعُ الله إلى عِبادِه لَيْلَةَ النِّصْفِ مِنْ شَعْبانَ ؛ فيَغْفِرُ لِلْمُؤمِنينَ ، ويُمْهِلُ الكافِرِينَ، ويَدعُ أَهْلَ الحِقْدِ بحِقْدِهم حتَّى يَدعُوهُ) .

فينبغي علينا أن نغتنم هذه الأيام المباركة في كثرة الطاعات ، وفعل الخيرات ، والتقرب إلى الله (عزّ وجل) ، امتثالًا لقول النبي (صلى الله عليه وسلم) : (إِنَّ لِرَبِّكُمْ فِي أَيَّامِ الدَّهْرِ نَفَحَاتٌ ، فَتَعَرَّضُوا لَهَا ، لَعَلَّ أَحَدَكُمْ أَنْ تُصِيبَهُ نَفْحَةٌ فَلَا يَشْقَى بَعْدَهَا أَبَدًا) .

اللهم أعنا على ذكرك ، وشكرك ، وحسن عبادتك .